جَهَنَّمُ . . .﴾[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٢].

وعلى الجملة تقوى فردية وتقوى جماعية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا . . .﴾[٣]:

وتقوى في الصبر والمصابرة والمرابطة: الروابط السياسية وسواها بين المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[٤] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٥].

وهكذا نرى التقوى بطيّات آياتها تشمل كافة مجالات الحياة من عقائدية وإيمانية وعلمية - عبادية وسياسية واقتصادية وحربية - وفردية وجماعية أما هيه؟

ومن أفضل التقوى: «أن تدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس»[٦].

و«أن تحب الله بقلبك كله وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت وترحم ابن جنسك: ولد آدم كلهم، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد فأنت تقي لله حقاً»[٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾:

أولئك المتقون على هدىً من ربهم، «إلى هدى» فإنهم مسيطرون على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١.
(٦) الدر المنثور ١: ٢٤ - أخرج جماعة عن عطية السعدي قال قال رسول الله ﷺ: لا يبلغ العبد المؤمن أن يكون من المتقين حتى يدع. . .
(٧) المصدر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: بلغنا أن رجلاً جاء إلى عيسى عليه السلام فقال: يا معلم الخير كيف أكون تقياً لله كما ينبغي له؟ قال: بيسير من الأمر: . . .

الهدى مجتازون طرق الردى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: إذ أفلحوا بمحراث التقوى كل شائكة في حرث الدنيا، فأصبحت الأولى هي الأخرى ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[١].

فالإفلاح هو الشقّ، والمتقون يشقون أمواج البحور المتلاطمة الهائجة المائجة بسفن التقوى، وفي سائر القرآن مواصفات أخرى للمفلحين توازي صفات المتقين[٢].

هذا شطر من صفات المتقين يفتتح به القرآن كأفضل ما به يتصفون ثم تقابلهم صفات الكافرين الذين لا يؤمنون بما ينذرون:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾:

الكفر هو ستر الشيء، ويوصف الليل بالكافرة لسترها الأشياء بظلامها، والزارع بالكافر لستره البذر بالتراب، ويوصف غير المؤمنين والمتقين بالكفار إذ رانت قلوبهم عن مشاهدة الحق، وسدّت نوافذها وأغلقت عن الإيمان بغيب الحق وشهادته، وقطعت وشائجها عن تصديقه.

وترى أن الذين كفروا هنا هل هم الكافرون أجمعون؟ وهم أضراب، وليس الإنذار وعدمه سواء عليهم كلهم!.

كلّا إنها لا تعني مطلق الكفر حيث الكثير منهم يؤمنون، من مشرك أو كتابي أم ماذا؟ وإنما الكفر المطلق المازج عقولهم، الضائقة به صدورهم،

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

(٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] وهي موازين التقوى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]... ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨] ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

المقلوبة قلوبهم المنحرفة أفكارهم، والخاطئة حواسهم، فهم في غيّهم يترددون، وفي عيّهم يعمهون: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]: كفر محيط بهم حيث لا يبقي لهم نوافذ بها يبصرون فـ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

ليس النص «الكافرون» حتى يشملهم أجمعين، بل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كفر حدث وجاه الرسالة الإسلامية، بعد كفر سبق: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[2]: الذين جحدوا بعد البينة، وأنكروا بعد المعرفة!. ولا أنه كلما حدث من كفر بعد كفر فالبعض ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[3] يتردون ردحاً من الزمن ثم يؤمنون، أم يتوبون عما كفروا فيهتدون.

وإنما يعني أخسّ دركات الكفر والطغيان ممن ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾[4] ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾[5] فريق خصوص من الكافرين الذين بلغوا في كفرهم وجحودهم ما لا يؤمل فيه إيمان مهما بقيت في قلوبهم نوافذ لرؤية الحق، ولكنهم يجحدون، فيجازيهم الله إذ يسدّ هذه البقيّة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[6].

فهؤلاء الأوغاد المناكيد من صناديد قريش وأضرابهم، الكفار الألداء جمعوا بين دركات الكفر: الخمس - في خماسية قاعدتها كفر الجحود على علم - ﴿... وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾[7] ثم كفر النعم: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[8] وكفر العمل:

(١) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٧) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٨) سورة النحل، الآية: ١١٢.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[١] ولحدّ الإيمان بالكفر لا الكفر فقط: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾[٢] [٣].

ولأن بنود الإيمان التقوى سبقت في مواصفات المتقين كإيمان مطلق للتقوى فليكن الكفر هنا وجاهة كفراً مطلقاً، في قلوب خاوية عن أية تقوى وأي إيمان هاوية كل دركات الطغوى دون إيمان، ناكرة لمثلث الغيب، عامدة، تاركة لأعمال الإيمان، كافرة بأنعم الله، مؤمنة بالكفر وكأنه الإيمان!

وترى هؤلاء الكافرون أبإمكانهم أن يؤمنوا؟ فبإمكانهم إذاً إبطال علم الله: أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾! أم لا يتمكنون؟ فلا موقع للتنديد بهم أنهم لا يؤمنون! ولا يصح تكليفهم بالإيمان إذ لا يتمكنون!

الجواب أن النص ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا «لن يؤمنوا» حيث يخبر عن واقع اللّاإيمان، لا استحالة الإيمان، وحتى لو استحال منهم الإيمان فإنما هي استحالة بالاختيار فلا تنافي الاختيار.

وهنا الإخبار عن واقع اللّاإيمان لأنهم لا يؤمنون باختيارهم، فلو كانوا يختارون الإيمان لكان الإخبار عن الايمان، فليس علم الله إلّا كاشفاً عن واقع المستقبل، دون أن يسبّبه، حيث العلم بوقوع حادث أم لا وقوعه، لا

(١) سورة الروم، الآية: ٤٤.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٢.
(٣) البرهان ١: ٥٧ - الكليني بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزوجل ؟ قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه، فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين (عن معرفة وعن جهالة) والكفر بترك ما أمر الله وكفر البراءة وكفر النعم. . . .

يسبب وقوعه أم لا وقوعه وإنما يكشف، إذاً فالواقع هو السبب لهذا الكشف لا أن الكشف يسببه!

وقد يخطىء الكاشف إذ لا يحيط علماً بما يحصل، فيبطل العلم به إذا حصل، وحاشا الله أن يخطىء فإنه بكل شيء محيط، فلا يمكن إبطال علمه.

وعدم الإمكانية هذه ليست لاستحالة الفعل واللّافعل المخبر عنه ذاتياً، حتى يسقط التكليف ويبطل التأنيب: «لماذا لا يؤمنون»؟ وإنما لاستحالته بالاختيار أنهم رغم اختيارهم في الكفر والإيمان سوف لا يختارون الإيمان.

وهذه من الملاحم الغيبية القرآنية أن ينبئ الله بما في قلوبهم وعن مستقبل أحوالهم، فرغم حرصهم بإبطال القرآن وإبطال علم الله، لم يُقدموا حتى على ظاهر الإيمان، فثبت علم الله، وصدق كتاب الله، وخسر هنالك المبطلون[1].

وثم إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فلا يتمكنون أن يؤمنوا، هنا يسلب عنهم اختيار الإيمان بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، وطالما لا يصح تكليفهم بالإيمان ولكنهم معذبون باللّاإيمان حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، والتنديد هنا بالامتناع الاختيار، كما العذاب ولا يمكنهم إبطال علم الله وإن حاولوا!

إذاً فأين إبطال علم الله أو إمكانيته، وأين استحالة الإيمان التي تبطل التكليف وتبطل التنديد بترك الإيمان؟!.

(١) الدر المنثور ١: ٢٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر قال: قيل يا رسول الله ﷺ، إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد نيأس فقال: ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ، قال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ - إلى - ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥] هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ - إلى - عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧] هؤلاء أهل النار قلنا لسنا هم يا رسول الله ﷺ! قال: أجل.

ثم النص ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا «سواءٌ عليك» فالرسول ليس له السكون عن واجب الإنذار، سواء - أكان عليهم سواء فلا يؤمنون، أم لا سواء فهم يؤمنون، فلينذر على أية حال كما المرسلون: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾[1] ففيما هو سواء يكون الإنذار حجة وعذراً، وفي سواه برهاناً ونُذراً.

فقد يكون المنذِر قاصراً عن الإنذار دون المنذرين فلا حجة عليهم، أو أن المنذرين قاصرون فكذلك الأمر، أو أنهم مقصرون رغم كمال الإنذار فلا يؤمنون فهنا الحجة البالغة عذراً، أو أنهم يؤمنون نتيجة الإنذار فهنا الحجة نذراً، وهكذا يكون دور الرسالات الإلهية في كمال الإنذار بين مثلث المنذرين وإن كانوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾!

فالإنذار هو الجناح الأعم من جناحي الرسالات حيث التبشير خاصٌ بالمتقين: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ... وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١﴾[2].

فواجب الإنذار على النبي يعمّ وإن بالنسبة لمن هو سواء عليهم، وتأثيره خاص بمن اتبع الذكر.. كأنه الإنذار لا سواه، حيث هو المؤثر لا سواه.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾:

هنا الغشاوة على أبصارهم والختم على قلوبهم، فماذا إذاً على سمعهم؟ أهو ختم عطفاً على قلوبهم، أم غشاوة معطوفاً لأبصارهم فالواو هناك عطف وهنا استئناف؟

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.
(٢) سورة يس، الآيات: ٥ - ١١.

بما أن غشاوة خصوص السمع غير مألوفة في سائر القرآن، وغير معروفة كذلك في غير القرآن، ثم نرى السمع مقرونة بالقلوب ختماً، والأبصار تنفرد بالغشاوة: لمكان «على» المكررة هنا ثم وفي غيره ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[١] وأن ظاهر الواو العطف إلّا بقرينة تعطفها على غيره كاستئناف، إذاً يرجح اختصاص الغشاوة بالأبصار، مهما يجمع الطبع أحياناً بين الثلاث: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[٢] فطبع الإبصار لا يستتبع غشاوة السمع! مهما شملت الغشاوة عامة الإنسان: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٣]: كما قد تفرد القلوب بالختم أخذاً بالسمع والإبصار: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾[٤].

أو أن السمع هنا مغشوّة كما الإبصار تلميحاً من تكرار ﴿عَلَىٰ﴾ فلولا غشوة السمع هنا كالأبصار لم تكن «على» كما في ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[٥].

أو أنهما معاً معنيان: أن ختم الله على سمعهم وعلى سمعهم غشاوة، فلأنهم غشوا سمعهم وأبصارهم ختم الله على قلوبهم مما يزيد ختم السمع والأبصار: فـ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[٦] ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[٧] لذلك ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[٨]، كما وأن قلوبهم مختومة مرانة بما كانوا يعملون: ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٩].

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة يس، الآية: ٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٦.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٨.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.
(٧) سورة الكهف، الآية: ١٠١.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(٩) سورة المطففين، الآية: ١٤.

ولماذا تفرد «السمع» دوماً مع جمع القلوب أو الأبصار، دون الأسماع؟ علّه لأنّ السمع في أصله مصدر لا يجمع وله معنى الجمع في جمعه والمفرد في مفرده، أو إذا لم يكن مصدراً فهو قوة في الأذن وليس هو الأذن حتى يجمع كالآذان، فلكل منا سمع في أذنين وليس بصر في عينين - حيث البصر هو العين بعينها، أم ماذا؟[١].

هنا الغشاوة على أبصارهم: أبصار القلوب والعقول والأفكار وأبصار العيون أيضاً - رغم أنها - علّها - أبصر من غيرها، إذ لم ينتفعوا بالنظر ولم يعتبروا بالعبر فهم كالخوابط الغواشي في مشيتهم، يخطئون الصراط المستقيم!

وإنها كلها من فعلهم أنفسهم إذ جحدوا بالحق وآياته بعد ما عرفوها، فلم تنسب إلى الله، وبذلك استحقوا أن يختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، فحتى لو شاؤوا أن يبصروا لم يتمكنوا، فنسب الختم عليها إلى نفسه، وفي الحق إنهم هم الذين ختموا على قلوبهم وعلى سمعهم إذ غشوا على أبصارهم، فمنه فعل لهم ومنه جزاء: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[٢] وعلّ الواو في ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ حالية تعني: أن الله ختم حال الغشاوة من فعلهم على أبصارهم، فظرف هذا الختم إنما هو غشاوة الأبصار، سابقاً على ختم السمع والقلوب.

كما علّها في ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أيضاً حالية تعني ما تعنيه في ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أن ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ حال أنهم ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ من فعلهم - وإنما الأصل هو القلب يقلبه الله كما يتقلب صاحبه إن خيراً فخير

(١) راجع ج ٢٩ ص ٤٩ تفسير الآية ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ [النحل: ٧٨].
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

وإن شراً فشرّ فلأنهم عموا عن أصل السبيل وصمّوا عن دعاء الدليل ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ . . .﴾ جزاءً وفاقاً.

فليس الطبع والختم على قلوب أو سمع - بداية ودون سبب - من الله، ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[١] ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[٢] ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٣].

فلأنهم كفروا بنعمة القلوب والسمع الإنساني، تناسياً عما يتوجب عليهم فيها، وتعمداً وتعنُّداً لضلالها، جازاهم الله في الأولى بطبعها ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

وهكذا يفعل الله بمن يبدل نعمة الله كفراً أن يذهب بها ويجعلها نقمة، ويقلّبها عليهم دماراً وبواراً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٤].

ثم القلوب هنا وفي سائر القرآن هي قلوب الأرواح لا الأبدان كما السمع والأبصار حيثما تقرنان بالقلوب هما كذلك للأرواح - فكثير من هؤلاء الكفار المختوم على قلوبهم، المغشوّة سمعهم وأبصارهم، لهم قلوب وسمع وأبصار لأبدانهم قوية، وأقوى من المؤمنين وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقد نأتي على قول فصل حول القلوب والأفئدة والسمع والأبصار والصدور والأرواح والعقول والأفكار بطيّات آياتها الأنسب وهي ثمان كأبواب الجنة الثمان، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

فأولئك الكفار، لاستهتارهم بالمنذرين والإنذار، لحدّ تساوى عليهم الإنذار واللّاإنذار، مطبوع على قلوبهم هنا، وموعودون في الأخرى عذاب النار، عذاباً على عذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾!.